المحاضرة السادسة:

[طبقات الكلام]

وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلم ذكروا العيّ والبكيء، والحصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدّق، والمتفيهق، والمهمار، والثرثار، والمكثار والهمار، ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط وقالوا: رجل تلقّاعة ، وفلان يتلهيع في خطبته . وقالوا: فلان يخطىء في جوابه، ويحيل في كلامه، ويناقض في خبره. ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء.

وأنا أقول: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء.

وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني. كما أن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا. وإنما الكرب الذي يختم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا.

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول: والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط.

ومتى سمعت- حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة

من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب، والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم. وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق.

ولأهل المدينة ألسن ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبارة جيدة. واللحن في عوامهم فاش، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب.

واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر. وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد. وكما يستملحون اللثغة إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح.

وربما كان اسم الجارية غليّم أو صبيّة أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزا شهلة، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالا وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت؟ ويا صبية كيف أمسيت.

ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو وذهبت أم حكيم. نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى وقد فسرنا ذلك كله في كتاب الأسماء والكنى، والألقاب والأنباز «١» :

وقد قال مالك بن أسماء «٢» في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أمغطّى مني على بصر لل ... حب أم أمنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وأحلى الحديث ما كان لحنا

[عيون المعاني]

وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعانى. ويقولون: أصاب الحق في الجملة. ويقولون: قرطس فلان، وأصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول. فإن قالوا: رمى فأصاب الغرّة، وأصاب عين القرطاس، فهو الذي ليس فوقه أحد.

ومن ذلك قولهم: فلان يفلّ الحزّ، ويصيب المفصل، ويضع الهناء مواضع النقب.

وقال زرارة بن جزء، حين أتى عمر بن الخطاب رحمه الله فتكلم عنده ورفع حاجته إليه.

أتيت أبا حفص ولا يستطيعه ... من الناس إلا كالسنان طرير

فوفقني الرحمن لما لقيته ... وللباب من دون الخصوم صرير

قروم غيارى عند باب ممنّع ... تنازع ملكا يهتدي ويجور

فقلت له قولا أصاب فؤاده ... وبعض كلام الناطقين غرور

وفي شبيه بذلك يقول عبد الرحمن بن حسان حيث يقول:

رجال أصحاء الجلود من الخنا ... وألسنة معروفة أين تذهب

وفي إصابة فصّ الشيء وعينه، يقول ذو الرمة في مديح بلال بن أبي بردة الأشعري:

تناخي عند خير فتى يمان ... إذا النكباء عارضت الشمالا «١»

وخيرهم مآثر أهل بيت ... وأكرمهم وإن كرموا فعالا

وأبعدهم مسافة غور عقل ... إذا ما الأمر في الشبهات عالا «٢»

ولبّس بين أقوام فكل ... أعدّ له الشغازب والمحالا «٣»

وكلهم ألدّ له كظاظ ... أعدّ لكل حال القوم حالا «٤»

فصلت بحكمة فأصبت منها ... فصوص الحق فانفصل انفصالا

وكان أبو سعيد الرأي، وهو شرشير المدني يعيب أبا حنيفة، فقال الشاعر:

عندي مسائل لا شرشير يحسنها ... عند السؤال ولا أصحاب شرشير

ولا يصيب فصوص الحقّ نعلمه ... إلا حنيفية كوفية الدور

ومما قالوا في الإيجاز، وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة، قول ثابت فطنة:

ما زلت بعدك في هم يجيش به ... صدري وفي نصب قد كاد يبليني

لا أكثر القول فيما يهضبون به ... من الكلام، قليل منه يكفيني «١»

إني تذكرت قتلى لو شهدتهم ... في غمرة الموت لم يصلوا بها دوني

وقال رجل من طي ومدح كلام رجل فقال: «هذا كلام يكتفى بأولاه، ويشتفى بأخراه» .

وقال أبو وجزة السعدي، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل:

يكفي قليل كلامه وكثيره ... ثبت إذا طال النضال مصيب

ومن كلامهم الموجز في أشعارهم العكلي، في صفة قوس:

في كفه معطية منوع ... موثقة صابرة جزوع

وقال الآخر، ووصف سهم رام أصاب حمارا، فقال:

حتى نجا من جوفه وما نجا «٢»

وقال الآخر وهو يصف ذئبا:

أطلس يخفي شخصه غباره ... في شدقه شفرته وناره «١»

هو الخبيث عينه فراره ... بهم بني محارب مزداره «٢»

ووصف الآخر ناقة فقال:

خرقاء إلا أنها صناع

يصف سرعة نقل يديها ورجليها، إنها تشبه المرأة الخرقاء، وهي الخرقاء في أمرها الطياشة.

وقال الآخر ووصف سهما صاردا، فقال:

ألقى على مفطوحها مفطوحا ... غادر داء ونجا صحيحا

المفطوح الأول للقوس، وهو العريض، وهو ها هنا موضع مقبض القوس. والمفطوح الثاني: السهم العريض. يعني أنه ألقى على مقبض القوس سهما عريضا.

وقال الآخر:

إنك يا ابن جعفر لا تفلح ... الليل أخفى والنهار أفضح

وقالوا في المثل: «الليل أخفى للويل» . وقال رؤبة يصف حمارا:

حشرج في الجوف سحيلا وشهق ... حتى يقال ناهق وما نهق

الحشرجة: صوت الصدر. والسحيل: صوت الحمار إذا مدّه.

والشهيق: أن يقطّع الصوت.

وقال بعض ولد العباس بن مرداس السّلمي، في فرس أبي الأعور السلمي:

جاء كلمع البرق جاش ناظرة ... يسبح أولاه ويطفو آخره

فما يمس الأرض منه حافره

قوله: جاش ناظره، أي جاش بمائه. وناظر البرق: سحابه. يسبح، يعني يمد ضبعيه، فإذا مدهما علا كفله. وقال الآخر:

إن سرك الأهون فابدأ بالأشد

وقال العجّاج:

مكّن السيف إذا السيف انأطر ... من هامة الليث إذا ما الليث هر

كجمل البحر إذا خاض جسر ... غوارب اليمّ إذا اليم هدر

حتى يقال حاسر وما حسر

قالوا: جمل البحر سمكة طولها ثلاثون ذراعا. يقول: هذا الرجل يبعد كما تبعد هذه السمكة بجسارة، لا يردها شيء، حتى يقال كاشف وما انكشف البحر.

يقال: البحر حاسر وجازر. يقول: حتى يحسب الناس من ضخم ما يبدو من هذا الجمل، أن الماء قد نضب عنه، وإن البحر حاسر. وقال آخر:

يا دار قد غيّرها بلاها ... كأنما بقلم محاها

أخربها عمران من بناها ... وكرّ ممساها على مغناها

وطفقت سحابة تغشاها ... تبكي على عراصها عيناها

قوله: أخربها عمران من بناها، يقول: عمّرها بالخراب. وأصل العمران مأخوذ من العمر، وهو البقاء، فإذا بقي الرجل في داره فقد عمرها. فيقول:

إن مدة بقائه فيها وقام مقام العمران في غيرها، سمي بالعمران. وقال الشاعر:

يا عجّل الرحمن بالعذاب ... لعامرات البيت بالخراب

يعني الفار. يقول: هذا عمرانها، كما يقول الرجل: «ما نرى من خيرك ورفدك، إلا ما يبلغنا من خطبك علينا، وفتّك في أعضادنا» .

وقال الله عز وجل: هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

. والعذاب لا يكون نزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه.

وقال الآخر:

فقلت أطعمني عمير تمرا ... فكان تمري كهرة وزبرا «١»

والتمر لا يكون كهرة ولا زبرا، ولكنه على ذا. وقال الله عز وجل:

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا

، وليس في الجنة بكرة ولا عشي، ولكن على مقدار البكر والعشيات. وعلى هذا قول الله عز وجل: وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

. والخزنة: الحفظة. وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به.

قوله: ممساها، يعني مساءها. ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه.
والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها. وطفقت، يعني ظلت. تبكي على عراصها عيناها، عيناها ها هنا للسحاب. وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه. ويقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء: عرصة.
وقال أبو عمرو بن العلاء: اجتمع ثلاثة من الرواة فقال لهم قائل: أي نصف بيت شعر أحكم وأوجز؟ فقال أحدهم: قول حميد بن ثور الهلالي:
وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولعل حميدا أن يكون أخذه عن النمر بن تولب، فإن النمر قال:
يحبّ الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل.

الأسئلة:

١. ما هي طبقات الكلام عند الجاحظ؟
٢. ما المقصود بعيون المعاني؟ اعط امثلة ممّا ذكره الجاحظ معضداً اجابتك بالشواهد
٣. اكتب الأبيات الآتية كتابة عروضية وانسبها الى البحر الذي كتب عليه:
يا دار قد غيّرها بلاها ... كأنما بقلم محاها
ما زلت بعدك في هم يجيش به ... صدري وفي نصب قد كاد يبليني
ولا يصيب فصوص الحقّ نعلمه ... إلا حنيفية كوفية الدور

٤. ما الوزن الصرفي للكلمات الآتية: غوارب، ناظرة، نعيم، حنيفية، شرشير.
٥. اعرب ما تحته خط فيما يأتي: (واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر).
٦. اعط معاني الكلمات الآتية بالرجوع الى المعاجم (الشوابّ، الظراف، فصوص، غوارب، غمرة).